صور من الحياة :

ركن يتـــداعى

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ٢ —

لما كتبت القسم الأول من هذه الصورة أسرع إلىّ صديق من ذوى الجاه والشأن فى وزارة الأوقاف ، وحدثنى حديثاً فيه الشفقة والعطف ، وفيه الرجولة والإنسانية ، وطلب إلىّ مشكوراً أن يبين صاحب هذه الصورة على بلواه بطريقة لا يحس الرجل فيها غضاضة الحاجة ولا ذل السؤال .

آه ، ما أسمى رجولتك يا من تهزك الأريحية الجياشة فتمد يدك الرفيقة لتمسح على أتراح رجل ضعضعته نكبات الزمن ، ولتخفف من آلام إنسان نجته الأيام فى حقله وسعادته ! إنك — ولا ريب — روح السماء ونسيم الجنة ، فدعنى أشكر عطفك ورقتك بلسان صديق الذى دهته القارعة فاجتاحت قوته وحيله ورزقه .

« كامل »

ندّ عن صوابى يوم أن رأيتك — يا صاحبى — أول مرة ، تطحنك مرارة الفجيعة فى نور عينيك ، وطار عن الحجا يوم أن لمست الأسى يتغلغل فى أغوار قلبك فيخترم شبابك ونشاطك من أثر الصدمة القاسية ، وماتت كلمات العزاء على شفتىّ يوم أن شهدت الصبية يرفون حواليك كالأقمار رونقاً وبهاء وينادونك : « انظر — انظر ، يا أبى » ، وهم يتوثبون بهجة وسروراً لأنهم لا يحسون ما أصابك من لوعة وضيق .

وصرفتنى عنك شواغل الحياة حيناً ، فحز فى نفسى أن لا أجد السبيل إليك وأنت تعانى حر المصيبة ووهج البلوى . على حين أنى لم أنس — أبداً — أنك كنت لى فى ميعة الصبا رفيق الروح فى وحدة الحياة ، وأنيس القلب فى وحشة العمر ، ونور النفس فى ظلام العيش . وأمضّ قلبى أن أرى حالك تحول فتغيض بشاشتك وتذوى سعادتك وتجدب حياتك ويتداعى ركنك ، ولكن روحى كانت — دائماً — تهفو إليك فتفيض لك نفسى بالهوى والود ، ويطفح قلبى بالشفقة والحنان ، فأنا ما زلت أذكر حديثك يوم أن قلت لى : « الآن — بعد أن نزلت بى هـذه النازلة الهوجاء — أجدبت حياتى وأقفرت دنياى وانسدت فى وجهى سبل العيش ، فما عدت ألمس روح الخصب إلا فى لقياك ، ولا أنشق شذا الإنسانية

تمثل الشعر الذى ينتقل بالماديات إلى نطاق المعنويات ؛ هناك حيث تستحيل الحركة الحسية فى بوتقـة اللفظ إلى موجة صوتية معبرة عن الوجود الداخلى . ومن ألوان الصورة الأولى عالم الطبيعة الإنسانية الخاصة ، وعالم النموذج النفسى العـام ، وعالم النظرة الكونية فى محيط الفكرة السابحة فى أجواء المجهول . ومن ألوان الصورة الثانيـة عالم الطبيعة المادية الخاصة ، وعالم النموذج البشرى العام ، وعالم النظرة الراقية فى محيط الرؤية الشعرية .

بعد هذا سأنتقل إلى المرحلة الثالثة من مراحل هذه الدراسة وهى مرحلة تطبيق هذه الألوان من الأداء النفسى على حياة على طه الشخصية . سأحاول أن أرد كل ظاهرة فكرية أو نفسية أو خلقية إلى مصادرها من الجو الطبيعى الذى تنفس فيـه — أعنى أننى سأنتقل من مرحلة الأداء النفسى بمعناه الإصطلاحى فى أصول النقد ، إلى مرحلة الأداء النفسى بمعناه الوجودى فى واقع الحياة ، وهو المعنى الذى أشرت إليه من قبل حين قلت إن شعر على طه كان مرآة صادقة لجوانب حياته .

أما المرحلة الرابعـة فستخصص للحديث عن المرأة فى شعر على طه ... هل فهمها كما يجب أن تفهم ؟ هل نظر إليها كما يجب أن ينظر ؟ هـل شرح الطبيعة الأنثوية كما يجب أن تشرح ؟ هل التقى مع شعراء المرأة هنا وهناك ، فى حـدود الجسد حين يتخذ معبراً إلى الغريزة أو حين يتخذ معبراً إلى الإحساس بالجمال ؟ ... هذا فصل خاص سأحاول فيه أن أنتزع الحقيقة الفنية من أغوار الحقيقة الوجودية .

وإذا ما انتهيت من هـذه المرحلة الرابعة مضيت إلى المرحلة الخامسة ، وهى أثر الثقافة الغربيـة فى شعر على طه ... أثرها فى الأخيلة التى تغلب عليها الواقعيـة حينا ، والرمزية حينا آخر ، والرومانتيكية فى كثير من الأحيان . ثم أثر الآفاق الغربية فى إمداد ملـكته الشاعرة بتلك الخامات من المشـاهد والخواطر والأحاسيس . .

يتبع

أنور المعداوى

إلا في مجالسك ، ولا أحس نعيم العزاء إلا في حديثك أنت — أنت أيها الرجل والصديق والأخ » .

* * *

قال لي صاحبي : « وأخذت أروِّض نفسي على حياة الظلام الدامس والوحدة الممضة والشظف القاسي ؛ فرقت مشاعري وأرهفت حواسي ، ولبست النظار الأسود أبغض ما يكون إلى لأداري خلفه لوعة قلبي وضعف نفسي ، وليكون حجاباً على أعين أولادي فلا تنفذ أبصارهم إلى علتي . وأحسست — بعد حين — أن الطبيعة تحبوني بعطف من لدنها علَّها تعوضني بعض ما سلبتني فأصبحت شديد الوعي أحفظ ما يلقى عليَّ لأول مرة ؛ حديد السمع والشم أسمع النأمة الخافتة تصدر من مكان قصي ، وأعرف القادم من وقع قدميه ، وأنشق ريح الرجل فأتبينه مقبلاً أو مدبراً ؛ دقيق الحس لا يخطىء حدسي مكان الجدار وهو على خطوات مني ، ولا يكذب ظني موضع المنعطف ولما أبلغه بعد ؛ نافذ البصيرة أستشف طوايا النفوس وهي تختلج بين الضلوع ، وأحس نوازع القلب وهي تخفق بين الحنايا ... فهدأت ثورتي وسكنت جائشتي .

« وجاء صغاري — ذات يوم — يتدافعون ويسألون : أحقاً ما نسمع ، يا أبي ، هل فقدت بصرك ووظيفتك ؟ وأنا رجل أقدس المبدأ والعقيدة ، وأومن بأن الطفل بريء بطبعه نقي بسليقته ، فهو لا يتعلم الكذب والخداع إلا في داره ، ولا يتلقن اللؤم والمكر إلا من أبويه ، ولا يسلك سبيل الضعة والخساسة إلا بقدر ما يجدها في بيته . ولقد أخذت نفسي — منذ أن صرت أباً — بألا أحدث أولادي حديث الكذب والخداع أبداً . فقلت : « نعم ، يا أبنائي ! » وشعرت — إذ ذاك — بقسوة الصراحة ، فلقد خُيِّل إليَّ أن كلامي تهبط على هذه الأرواح الصغيرة المرحة مثلما تهبط الصاعقة الجاسية على شيء تافه ضئيل . واستشعروا الصدمة العنيفة فاستعبر طوائف بكاء مر طويل فيه الحرارة واللوعة ، وفيه الشفقة والحنان ... استعبروا في بكاء مر طويل وأنا بينهم في حيرة وذهول أهدئ الروع فلا يهدأ ، وأسكن الثورة فلا تسكن . وجاءت كبرى بناتي وهي صبية جميلة القسمات خلابة السمات رائعة الحسن طيبة القلب رقيقة المزاج مرهفة الحواس ، جاءت لتضمني إلى صدرها وهي تذرف عبرات حرى تتدفق مدراراً على وجهي ، وتصرخ في غير وعي صرخات مفزعة : « أبي ... أبي ! » واندفعت تصرخ في لوثة وجنون ، وحار قلبي لما رأيت ، وتراءى لي أنني أشهد مأتماً هو مأتمي ، وهؤلاء الصبية يشيعون أباهم إلى رمسه ، فنازعتني نفسي إلى أن أستسلم لضعفي فأشاطرهم البكاء وأشاركهم النواح عسى أن أسرى عن نفسي أو أخفف من شجو أولادي .

« آه ، يا صاحبي ، لقد كان مشهداً رهيباً مرعباً ، كاد يعصف بصبري وإيماني ، فسولت لي خواطري أن أفر من داري لأقذف بنفسي في اليم ، أو أقد قلبي بسكين ، أو ألقي بروحي في هاوية ما لها من قرار . ولكني خشيت أن أفجع أولادي مرتين ، وفي القلب إيمان وأمل ؛ فسكت على أمر يتأجج ، وكتمت شجوني على حزن يتوهج ، وأطرقت وأنا أربت على كتف هذا ، وأضم ذاك إلى صدري ، وأقبل تلك في شوق وحنان .

« وعجب الصغار من صمتي وأخذتهم روعة معاني فهدأت الثورة ، وفي النظرات ذهول وحنان . وانطلقنا جميعاً في موكب الحياة ؛ ولزوجتي في القرية خمسة أفدنة . أما أنا فما ظفرت من ميراث أبي بشيء لأن أخي الأكبر كان قد عبث بتجارة أبي وعاث في حساباته تبعثر المال كله بطريقة شيطانية وضيعة .

« انطلقنا جميعاً في موكب الحياة ولزوجتي في القرية خمسة أفدنة هي الأمل الباسم في ظلمة الحياة ، هي الشعاع الدقيق ينفث في القلب الراحة ويبعث في النفس الطمأنينة . وحدثتني نفسي بأن أهجر المدينة إلى القرية خشية أن تعصف بنا طلبات المدنية أو أن ترهقنا حاجات الحضارة . ووجدت في الخاطرة منفذاً ففزعنا إلى هناك عند أول زفرات الهاجرة .

« وفي القرية وجدت الراحة التي تعصف بالنشاط ، والخمول الذي يقتل الفكر ، والوحدة التي تورث الفناء ، والهدوء الذي يثير الأعصاب ، والفراغ الذي يشغل البال ، والجهل الذي يسخر من الثقافة . فكنت أقضي يومي وحيداً على مصطبة إلى جانب الباب في فيء شجرة ؛ أفتقد الصاحب وأفتقر إلى السمير ، فطالت أيامي وقد أضمها الملل والضيق ، ومن حولي أولادي تصرفهم المتعة وتتشاءم الحضارة وتستهدم الحرية .

« ثم هبت أول نسمات الخريف تحمل معها المشكلة الكبرى . . . مشكلة الصبية تناديهم المدرسة . وأقبلت زوجتي تحدثني حديثهم في رفق ولين ، فألقيت السمع إلى كلامها غير أني لم أجد الرأي : ترى هل يعيش الصغار وحدهم في المدينة يقاسون